أبو الأعلى المودودي

الإسلام والجاهلية

مؤسسة الرسالة

حسين يوسف الكويتي

ابو الأعلى المودودي

الإسلام والجاهلية

مؤسسة الرسالة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والجاهلية

كلُّ ما يواجهه المرء من شيء في هذه الدنيا ، لا يمكنه أن يعامله حتى يرى رأيه عن حقيقته وماهيته وعن العلاقة التي بينه وبين ذلك الشيء . وهو مضطر بطبعه الى أن يرى رأيه الخاص عن تلك الأمور ، سواء كان ذلك الرأي خطأً أم صواباً ، لأنه لا يقدر أن يقطع بشيء في الوجهة التي يجدر به اختيارها تجاه ذلك الشيء او الطريق الذي ينبغي له السير عليه في بابه حتى يصل الى رأي له في شأنه . وهذا ما تعرفه من تجاربك اليومية . فحينما تلاقي رجلاً تتطلب نفسك أن تعرف : « من هذا الرجل ؟ وما هي منزلته في المجتمع ؟ وما هي الأواصر التي تربطني به » ؟ وإلا ، فلا يمكنك أن تجزم بشيء في ما ينبغي لك أن تعامله به ، وإن لم تحصل لك المعرفة بما يجب أن تعرفه عن ذلك الرجل أو تلك الأمور ، كنت مضطراً الى ان ترى فيها رأيك بالحدس والتخمين ، حسب ما دلت عليه القرائن . والطريق

الذي تختاره وتسير عليه في معاملتك إياه ، إنما يكون مبنيا على الرأي الذي رأيتَه في ذلك الرجل او الأمر . وأضرب لك مثلاً الأشياء التي تأكلها وتتغذى بها ، فإنك ما آثرتها لغذائك إلا بعد ما عرفت بالعلم أو التخمين أنها تزودّك بالمواد الغذائية اللازمة لحياتك . وكذلك الأشياء التي تطرحها أو تستخدمها والتي تحافظ عليها وتضن بها والتي تعظمها أو تصغرها ، والتي تخافها او تُحبُّها ، فان هذا الاختلاف في وجهات نظرك من شأنها وتعدد طرقك في معاملتك إياها ، إنما نشأ من اختلاف وجوه الرأي الذي رأيته في حقيقة تلك الأشياء وماهيتها وفي علاقتك بها .

ثم إن الرأي الذي تراه في الأشياء يتوقف على صحته وفساده صحةُ الطريق الذي تختاره في معاملتك إياها وفسادُه . أما هذا الرأي نفسه ، فيتوقف صوابهُ وخطؤه على المبَنى الذي اعتمدت عليه في رأيك . والأمر فيه يرجع الى أنك هل استندت في رأيك هذا الى علم او عوّلت على حدس وتخمين أو وهم مشاهدة حِسيّة فحسب . ولنأخذ لذلك النار مثلاً ؟ فإن الصبي يقع نظره عليها ويرى بشهادة من حواسه فحسب أنها لعبة بلغت في الجمال غايتها فيكون من أثر هذا الرأي في نفسه أنه يمد يده للقبض عليها واللعب بها . وكذلك يبصر رجل آخر بتلك النار نفسها ويرى بالحدس او التوهم أن فيها شيئاً من الألوهية او انها مظهر من مظاهرها . فيكون لهذا الرأي أثره في تفكيره وعمله ويقطع ذلك الرجل على نفسه ان يسلم وجهه لتلك النار الساطعة ويخضع

لها . وههنا رجل ثالث ينظر الى تلك النار بعينها ، بنظرة غير النظرة التي رأى بها ذلك الصبي وهذا الرجل ، فإنه يتأمل حقيقتها ويدقق النظر في استكناه ماهيتها ويعرفها ، بعد ما يتحقق من أمرها ويتثبت من حقيقتها فيرى ، أنها شيء يستخدم للطبخ والايقاد والاصطلاء ، وأن الذي ينبغي أن يكون بينه وبينها ما يكون بين المستخدم والخادم . فلا يتخذ هذا الرجل النار لعبة ولا إلهاً بل يستخدمها للطبخ والايقاد والاصطلاء ، حسب ما يشعر بالحاجة اليها . فالطريقان الاوليان - طريق الصبي وطريق العابد للنار - من طريق الجاهلية ، لأن رأي الصبي في النار أنها لعبةٌ ، يظهر خطؤه بالتجربة ، ورأي العابد في النار بأنها الهه او مظهر من مظاهر الألوهية لا يستند الى تحقيق علمي ، وإنما مرجعه الى التخمين او الوهم . وأما الطريق الثالث - طريق المستخدم للنار - طريقٌ علمي بحتٌ ، لأن رأيه فيها يستند الى ركن من العلم والتحقيق وثيق .

مسائل الحياة الاساسية :

إذا عرفت هذا ، فلنتوسع في المسألة ولننتقل من الجزئيات الى النظر في الكليات . فالإنسان يجد نفسه في هذا العالم ، وهو يملك جسماً ، فيه قوى عديدة متشعبة ، وبين يديه السماء مرفوع سمكها والأرض ممهد فراشها بما فيها من بدائع الأشياء وغرائبها التي لا يأتي عليها الاحصاء ، وهو يجد نفسه قادراً على استخدام هذه الأشياء والانتفاع بها . وكذلك يرى أمامه ومن حوله جمعاً غفيراً من الإنسان والأنعام والنباتات والجمادات وغيرها ،

وحياتَه منوطةً بجميعها . فهل يمكنك ان تتصور ان الانسان يستطيع أن يعامل تلك الاشياء بشيء ويعين طريقه في شأنها ، ما لم يصل الى رأي عن نفسه وعن الموجودات التي يراها مبثوثة من حوله وعن العلاقة التي بينه وبين تلك الموجودات . وهل يستطيع أن يختار منهاجاً لحياته ما لم يصل الى رأي حاسم عن ذاته وما لم يعرف هُويَّته وماهيته حق المعرفة ، وما لم يعلم عن نفسه : هل هو مسؤول عن شيء ؟ وهل هو مستقل بأمره أو منقاد لأحد ؟ وان كان منقاداً فمن ذا الذي ينقاد له ويذعن لأمره ؟ وإن كان مسؤولاً عن شيء في حياته فمن الذي يُطالبه بذلك ؟ وهل من غاية لحياته الدنيوية هذه أم لا ؟ وإن كانت فما هي تلك الغاية التي يؤول اليها أمر هذه الحياة ؟ وكذلك هل في وسعه أن يعيِّن مجرى للقوى المدّخرة في ذاته ويحددٍ لها منفذاً ومخرجاً ، ما لم يقطع بشيء في أن هذا الجسد وهذه القوى الجسدية ملك له ذاتي اوهي موهبة من المواهب ، أنعم بها من لدن ذات أخرى ؟ وهل من أحد يحاسبه أم لا ؟ وهل بيده تعيين حدود لاستخدام هذه القوى أم لأمر في ذلك يرجع الى أحد آخر ؟ وأيضاً ، هل في مكنته أن يحدد واجباته ومنهاج عمله تجاه الأشياء التي يجدها مبثوثة من حوله ، ما لم يتحقّق من أنه مالك الاشياء او أنها ملك لأحد آخر غيره ؟ وانه هل من حد لحقوق تصرفه فيها أم لا ؟ وإن كان لها حد ، فمن ذا الذي يُرجَع اليه ويُعوَّل عليه في تعيين الحدود ؟ وكذلك هل تراه يستطيع ان يحدّد صورة ويضع منهاجاً معيناً يتعامل به الناس

في ما بينهم ما لم يصل الى رأي في باب « الإنسانية » ؟ ما هي حقيقتها وماهيتها ؟ وما هي القواعد التي يقوم عليها الفرق بين الإنسان والإنسان والتفاوت بين مختلف أفرادهم ؟ وما هي الأمور التي ينهض على أساسها بنيان الصداقة والعداوة والوئام والشقاق والتعاون والتقاطع ؟ وعلى غرار ذلك ، هل يقدر الإنسان أن يحدد له طريقاً مستبيناً ومنهاجاً معيناً نحو هذه الدنيا بأجمعها ما لم يبت بشيء في باب هذا الكون وحقيقته ، وما لم يصل الى نتيجة في شأن منزلته في هذا الكون والفراغ الذي يملؤه فيه .

والذي أجملته آنفاً ، يبيّن المسألة تبييناً ، وبناء على ذلك يمكننا الآن أن نقول بكل تأكيد أنه ليس في وسع الإنسان ومكنته أن يضع خطة او ينتقي منهاجاً من غير أن يرى رأيه عن تلك الامور كلها ويقطع بشيء في بابها . والحقيقة أن كل من يعيش في هذه الدنيا من بني آدم ، لا يخلو من رأي له في هذه المسائل من حيث يشعر او لا يشعر ، وهو مضطر بطبعه الى ذلك ، لأنه لا يستطيع أن يخطو خطوة في مضمار هذه الحياة الدنيا من غير أن يستند الى هذا الرأي ويرجع اليه . وليس معنى ذلك أن يكون كل واحد منهم قد تدبر هذه المسائل ونظر فيها نظرة المتَفلسِف ورأى رأيه فيها بعد ما دقق النظر في كل واحد منها . لا ، لا نريد ذلك بل الأمر أن كثيراً من الناس قلما تكون في اذهانهم صورة صادقة لمثل هذه المسائل ، وهم لا يفطنون لها أصلاً ولا يعيرونها أدنى تفكير وهم يشعرون ،

ولكنه ، مع هذا وذاك ، يصل كل واحد منهم بطبيعة الحال الى رأي إجمالي ، ايجابي او سلبي ، في كل هذه الاسئلة التي تنشأ في أذهان الذين يتفكرون في هذا الكون . والطريق الذي يختاره لحياته يكـون بطبيعة الحال والظروف موافقاً لهذا الرأي ومطابقاً لمقتضياته .

وهذا الذي ذكرتهُ يصدق على الجماعات ، كما يصح في شأن الافراد . وبما ان هذه الأسئلة من المسائل الأساسية للحياة البشرية ، لا يمكن وضع منهاج أو برنامج عملي لنظام من نُظم العمران والثقافة أو لمجتمع من المجتمعات ، ما لم يُعيَّن جوابٌ لتلك الأسئلة المهمة . والجواب الذي يعين لتلك الاسئلة ، لا تتشكل نظم الحياة إلا وفق مقتضياته . فلا تقوم نظرية الأخلاق إلا موافقة للمطالب التي يستدعيها ذلك الجواب . وكذلك جميع نواحي الحياة وفروعها ، لا يمكن أن تتشكل إلا ملائمةً لدواعيه ومطالبه ، وجملة القول ان المدنية بأسرها لا تتشكل إلا بالشكل الذي يقتضيه ذلك الجواب ولا تصطبغ إلا بالصبغة التي تستدعيها طبيعته . وهذا يلزمَه بطبعه ، والخُلف غير ممكن في ذلك ، فان الطريق العملي ، سواء كان طريق فرد أو جماعة ، لا بد أن يتشكل بالشكل الذي يقتضيه ذلك الجواب ويستدعيه وضعيته الخاصة ، وإن شئت أن تدقق النظر في طريق فرد أو جماعة وأن تحلله فستعرف بكل سهولة ما وراء هذا الطريق الخاص من جواب مخصوص لتلك الأسئلة ، يعمل فيه عمله ويدفعه الى الامام ، لأنه من المستحيل

أن تخالف هُوِّيةَ الطريق الفردي أو الجماعي هويةَ الجواب لتلك المسائل في حال من الأحوال . نعم ، يمكن أن يكون خلاف بين القول والاقرار باللسان وبين الطريق العملي على ما هو عليه في الواقع ، لكنه من المتعذر أن يكون خلاف ما بين وضعية الطريق العملي وبين وضعية الجواب لتلك الأسئلة ، على ما هو عليه في نفس الإنسان .

اذا عرفت هذا ، فلنتقدم خطوة أخرى في مجال البحث . هذه المسائل الاساسية للحياة البشرية التي عرفت عنها آنفاً أنه لا يمكن الإنسان أن يتقدم ولا خطوة واحدة في مضمار الحياة الدنيا من غير أن يجد لها في ذهنه حلاً مرضياً ... هذه المسائل كلُّها تتعلق بالمغيبات والسمعيات ، فلا يوجد جوابُها على طرف الثمام حتى يمكن لكل أحد ان يعرفه بأدنى تأمل ونظر . وكذلك ليس في محل من البداهة يعرفه كل رجل من غير روية ولا تفكير . ومن ثم لا تجد لها حلاً يتفق عليه البشر جميعاً ، بل الامر انه ما زال البشر يختلفون في بابه منذ قديم وما انفكت جماعات منهم تحلها وتفكّ معضِلها بطرق مختلفة متضاربة في الفكر والمنهج . فاذن ما هي الصور التي يمكن بها فك معضلات تلك المسائل ، وما هي الطرق التي اختبرت له في الدنيا حتى الآن ؟ وما هي وضعية الحلول التي تستخرج من هذه الصور المختلفة والطرق المتشعبة ؟

فالطريق الاول لحلها ان يثق المرء بحواسه ويعتمد عليها ، ويرى في تلك الامور رأيه مستنداً الى ما تُمِدُّه به تلك الحواس

من شعور . والطريق الثاني أن يَضُمَّ الحرص والتخمين الى المشاهدة الحسية فيستخرج بذلك نتيجة ويصل الى رأي في شأن المسائل . والطريق الثالث ان يَقبَلَ ما جاءت به رسل الله من حلول مرضية لتلك المسائل ، محتجين بأنهم قد انكشفت لهم الحجبُ وعرفوا الحقيقة من معدنها ووصلوا منها الى اعماقها وقرارة كنهها .

فهذه هي الصور الثلاث التي اختيرت في الدنيا للآن لحل هاتيك المسائل . والغالب انه ليس لها من رابعة . وكل صورة من هذه الصور تحل هذه المسائل بطريق خاص ، ويحصل بكل واحد منها منهاج للعمل خاص ويتشكل نظام للاخلاق ونظام للعمران على حدة ، وكل واحد من تلك المناهج والنظم يخالف في حقيقته وخصائصه الجوهرية ، المناهج التي تستدعيها الحلول الاخرى وتتشكل وتبرز الى الوجود وفق مقتضاها .

وهأنذا أريد أن اعرض عليك الحلول المختلفة لتلك المسائل التي تحصل بهذه الطريقة وأُبيِّنَ لك المناهج المتشعبة التي تتولد من هذه الحلول المتضاربة وتتشكل .

الجاهلية المحضة :

اذا رأى الانسان رأيه في هذه المسائل مستنداً الى حواسه ومعتمداً عليها أفضت به طبيعةُ هذا الطريق الفكري وألجأته النوازعُ الكامنةُ في هذا الطراز من الفكر الى ان يستنتج أن هذا الكون وما يحيط به من نظام مُبدع لا غاية ولا مصلحة

من وراء وجوده ، وإنما ظهر مصادفة وبرز الى عالم الوجود من حيث لا يَعرف له من دافع ، وهكذا هو سائر في طريقه من غير رَوية ولا قصد ، وكذلك صائر الى الانقراض لا محالة ، من غير أن تكون له غاية او يأتي بنتيجة . ولا يُرى له من خالق ، فلا خالق لهذا الكون ولا بارىء له أصلاً ، وإن كان ، فلا صلة له بحياة البشر ولا سلطان له عليها . وإنما البشر نوع من الحيوان ظهر الى الوجود مصادفة ، لا يعرف مَنْ بارئهُ ومُظهره من العدم ، أم خُلق من غير خالق وظهر بنفسه الى مسرح الوجود ؟ ومهما يكن من الامر فذلك لا يُغني المتمسك بهذا الطريق الفكري في قليل ولا كثير . وانما نعرف من أمر الإنسان أنه يوجد على هذه الارض وبين جنبيه رغبات ومطالب ، تنبعث طبيعته لقضائها انبعاثا ، ويملك من القوى والوسائل ما يمكن ان تكون عوناً له في قضاء هذه الرغبات والمطالب واستكمالها ، والارض من حوله مشحونة غاصّة بأنواع وصنوف من المُتَع وأدوات النعم مما لا يحيط به إحصاء ولا يأتي عليه عد ، يمكنه أن يستخدم قواه ووسائله التي يملكها للتمتع بهذه النعم المبثوثة على وجه الأرض قضاءً لمآرب نفسه واستكمالاً لنوازع فطرته . فلا مجال للوسائل والقوى الكامنة في طبيعته ولا غاية من وراء وجودها الا أن يستخدمها لقضاء مآربه ويستغلّها لاستكمال نوازع طبعه حسب ما شاءت طبيعته ونزعت اليه أهواؤه ، فما الدنيا إلا كمائدة مشحونة بصنوف من متع الحياة ونعمها ، لا مالك لها ، وللإنسان ان يتصرف

فيها ويأخذ منها كيفما شاء وشاءت نوازع طبعه ونوازيه ، وليس هنالك من رادع او زاجر يكون مسؤولاً أمامه ومطالباً بين يديه ، ولا ينبوع للعلم يستقي منه المرء ويروي به غليل تطلعه وتشوقه الى المعرفة ، ولا منار للهداية يهتدي به الإنسان في ظلمات الحياة اليومية . فالإنسان قائم بأمره مستقل بشؤون حياته لا يُسأل عن شيء ولا يُحاسَب أمام أحد ، وهو الذي يتولى التشريع والتقنين لنفسه وبيده تعيين حدود ومقادير لاستعمال القوى التي يملكها ، وكذلك اليه يرجع الامر في تحديد طريقة العملي في معاملته لمن حوله من موجودات هذا المكان . وإن كان له من مرجع للهداية ومصدر ، ففي حياة البهائم والانعام وما جرَيات الصخور الصماء او في تجارب تاريخه لنفسه وإن كان مسؤولاً أمام أحد ، فبين يدي نفسه وشهواته او أمام السلطة الغاشمة التي تنشأ من البشر نفسه وتحتكم في مقادير أمورهم . وكذلك الحياة ، إن هي إلا هذه الحياة الدنيا ، وكل ما يُجزى به المرء على أعماله وينتج عنها من سعادة او شقاء فلا يتعداها ولا يتجاوزها . فالحكم بكون العمل صواباً او خطأً ونافعاً او ضاراً ومما ينبغي الاخذ به او رده ، لا يكون إلا وفق النتائج التي تظهر في هذه الدنيا .

وهذه نظرية للحياة كاملةٌ ، عالجت جميع المسائل الاساسية للحياة البشرية وعرفت جوابها واستخرجت حلها على أساس المشاهدة الحسية . ولا جرم ان بين مختلف أجزاء هذا الجواب وفروع هذا الحل المتشعبة تلاؤماً وارتباطاً منطقياً يمكن الإنسان

بموجبها ان يختار منهاجاً واضحاً وطريقاً مستبيناً في هذه الحياة الدنيا . وذلك بصرف النظر عما اذا كان هذا الجواب والطريق الذي ينبعث منه صواباً أم خطأ . فلننظر في الطريق الذي يختاره المرء في الدنيا على أساس هذا الجواب والحل ، حتى نعرف مدى تأثيره في مختلف نواحي الحياة .

فمن تأثير هذه النظرية الطبيعي في الحياة الفردية ان يكون الإنسان مستقلاً بشؤونه ويختار منهاجاً لنفسه ، غير مسؤول عن شيء مما يأتي به من الأعمال ، لا رادع يردعه عن غيّه ولا زاجر يكبح من جماح شهواته ونوازع نفسه ، فيحسب نفسه مالكاً لبنيته الجسدية وما أودعت من القوى الطبيعية ويستخدمها كيفما شاء وشاءت رغباته وأهواؤه . وكل ما يأتي تحت تصرفه من أدوات الدنيا ومتاعها إنما يتصرف فيها كما يتصرف راعي الإبل في ماشيته التي يملكها ، وكل من لم يقدرّ له أن يتساط عليهم ويمتلك ناصية أمرهم إنما يعاملهم كما يعامل الجبابرة من يملكونهم من العبيد . ولا يكون هنالك من حد لسلطته ولا رادع عن طغيان شهواته غير الحدود الطبيعية التي تستوجبها النواميس الفطرية وبعض القيود التي لا مندوحة عنها للبشر في حياتهم الاجتماعية . أما أن يكون في أعماق نفسه وقرارة ضميره من الشعور الخُلقي ، شعور بالمسؤولية والمحاسبة ، ما يفثأ من حميته ويمسك من عنان شهواته ، فلا تجد له عيناً ولا أثراً .

فحيثما لم تكن حدود وعقبات خارجية وحيثما كان المرء قادراً على المضي في سبيله بالرغم من الحدود والعقبات ، فمن طبيعة هذه العقيدة ونواميسها الفطرية في مثل تلك الظروف أن يكون الرجل جائراً غشوماً شريراً لا يوثق به ولا يُؤتَمَنُ على شيء . ولا جرم أن يكون مفطوراً على حب الذات والأنانية والأثرة وتعبد الشهوات النفسية ، نزاعاً الى قضاء مآربه وانتهاز الفرص السانحة لها . ولا يكون من همه في الحياة الا الإستسلام لمطالبه الذاتية واستكمال حاجاته البهيمية . وكذلك لا يحلو في عينه الا ما ينفعه بشيء في العاجل ولا يقيم وزناً إلا لما يأتي عليه بخير في إنجاز مهمة حياته . ولا غرو فإن ظهور مثل هذه السَجِيَّة والخلق في الأفراد مُستَلزَمٌ لهذه العقيدة ومن نتائجها المنطقية . ومن الممكن أن يتخلق مثل هذا الرجل بنوع من الأخلاق الحسنة الفاضلة لمصلحة أو غاية بعيد مرماها فيواسي جيرانه ويعطف على المساكين ويضحي بماله ووقته في سبيل رقي أمته ويبذل الجهد المستطاع لترقية بني جلدته والصعود بهم الى معارج الكمال والفلاح ، ولكنك اذا دققت النظر في خلقه وسبرت غور طريقه ومناهجه لعلمت أنه ما يريد بكل ذلك إلا أن يمتع نفسه بلذات الحياة ويستزيد من متعها . وإن هي إلا صورة أخرى للأثرة وحب الأنانية ، فإنه يرى في رقي شعبه وبني قومه رقيَّ نفسه واستكمال مطامحه وآماله فيستنفذ مجهوده في صلاحهم وإصلاح شؤونهم . ومن ثم ترى أن رجلاً مثل ذلك قصارى مجهوده وغاية ما يطمح

اليه بصره أن يكون وطنياً مؤمنا بالقومية ثم ان « الهيئة الاجتماعية » او المجتمع الذي يتكون ويتشكل من مثل هؤلاء الرجال يكون من خصائصه اللازمة البارزة :

(١) أن ينهض بنيان « السياسة » على قواعد « الحاكمية البشرية » سواء كانت حاكمية فرد أو أسرة أو طبقة او حاكمية الجمهور . وأعظم ما يمكن أن ينشأ في مثل هذا المجتمع من تصور اجتماعي وأبلغه مدىً وأرقاه فكراً هو تصور « الدول المشتركة » . والظاهر أن التشريع في هذه المملكة يكون بأسره في يد الإنسان ، والقوانين كلها توضع وتغير حسب الرغبات والمصالح التجريبية . وكذلك الخطط السياسية لا تعين ولا تبدل إلا وفق ما يقتضيه حب المنفعة ومراعاة المصالح . فلا ترتفع في المملكة كلمةٌ ولا يعلو فيها شأن إلا لكل من بلغ الغاية في الدهاء والمكر واختلاق الأكاذيب واستولى على الأمد في الخديعة والقسوة وخبث الطوية ، وبيدهم يكون زمام أمر المملكة وعليهم يعوَّل في زعامة المجتمع . فيصير الباطل حقاً في « شرائعهم » لما لأهله من القوة والبطش وينقلب الحق باطلاً في قضائهم اذا عدم الناصر له والمنافح عن كيانه .

(٢) وأن يقوم نظام العمران والحياة الاجتماعية بجملته على أساس حب الذات وتعبد الشهوات ، فلا يبقى في المجتمع من القيود الخلقية ما يمنع المرء من الجري في تيار الشهوات والأهواء النفسية وتقام المقاييس الخلقية من جديد ، بحيث

لا تحول دون التمتع باللذات والاسراف في مطامح الحياة ، وإن حالت دون ذلك فتحلة للقسم او رداً للعين الحاسدة .

(٣) وكذلك تتأثر الآداب والفنون بهذه العقلية وتصطبغ بصبغتها وتزداد فيها عناصر الخلاعة والفحشاء كل يوم .

(٤) أما الحياة الاقتصادية فتارة ينبعث فيها نظام الاقطاعية ، وطوراً يظهر نظام الرأسمالية ويحل محله ، وأخرى يثور العمال فيؤسسون نظامهم الدكتاتوري . والخلاصة ان النظام الاقتصادي لا يقوم على القسطاس المستقيم بحال من الأحوال ، لأن الفكرة الأساسية السائدة في كل فرد من أفراد هذا المجتمع ، عن العالم وما فيه من الثروة والغنى تكون مبنية على تصور أنها غنيمة باردة ، لا يعرف من أمر صاحبها شيء ، وأنه لا يعوقه شيء ولا يردعه رادع عن القبض عليها والتصرف فيها حسب ما توحي اليه أهواؤه وتسمح به الظروف .

(٥) وعلى مثلها النظامُ الذي يُدوَّن ويُرتَّب لتعليم الأطفال وتربية الأولاد وتنشئة الرجال في هذا المجتمع ، فإنه أيضاً يكون ملائماً لطبيعة هذه الفكرة ومناسباً لهذا التصور للحياة وموافقا لهذا الطريق العملي ، فلا تُدرَّس فيه الناشئة الجديدة عن الإنسان ومنزلة الإنسان في العالم ولا يلقَّن كل جيل مقبل في هذا المنهاج التعليمي إلا ذلك التصور العقيم الذي بَيَّنَّتهُ في ما تقدم . وكل ما يلقي اليهم من معلومات العلوم المتشعبة المختلفة بترتيب وانتظام يُنشئهم على هذه الفكرة ويطبع

أذهانهم على غرار هذا التصور للحياة البشرية ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وكذلك يعني هذا النظام التعليمي بتثقيف الناشئة وتربيتهم على منهاج يجعلهم على استعداد لأن يختاروا هذا الطريق في حياتهم ويندمجوا في مثل هذا المجتمع بطيب نفوسهم ، ولست بحاجة الى أن أبين لكم شيئاً كثيراً عن خصائص هذا النظام التعليمي ونتائجه ، فإنكم أدرى بها وقد جربتموها بأنفسكم . وهذه الكليات والجامعات التي تتلقون فيها العلم ، ما أنشئت إلا على أساس هذه النظرية وإن اتخذت بعضها من « الإسلام » و « المسلم » شارة لنفسها ، فتسمت بالكلية الإسلامية والجامعة المسلمة .

وهذا الطريق العملي الذي أوضحته آنفاً ، طريق الجاهلية المحضة ، وصورته لا تختلف عن صورة طريق الطفل الذي يثق بالمشاهدة الحسية فحسب النار لعبة جميلة . وجل ما بينهما من الفرق أن خطأ هذه المشاهدة لا يلبث أن يظهر جلياً بالتجربة ، لأن النار التي يحسبها لعبة ويشرع في التلعب بها تكون ذات لهب ، ولا تلبث أن تدل الذي يتناولها بيده أنها ليست بلعبة . وبالعكس من ذلك فإن خطأ المشاهدة في هذا الطريق لا يبدو في عشية أو ضحاها وربما لا يظهر لكثير من الناس طول حياتهم ، لأن النار التي يتلعبون بها في هذه الحياة الدنيا ليست بحامية ولا تصيب الذي يلمسها بيده بضرر عاجل بل يصطلي بها البشر آماداً بعيدة وأحقاباً طويلة ، وهم لا يحسون بلظاها . على انه اذا تأهب رجل للاتعاظ بالتجارب والاعتبار بالحوادث

فله سعة ومنتدح لذلك في هذه الحياة اليومية ، وأي سعة ؟ والذي يشاهده ليل نهار من خيانة الرجال ومظالم الولاة وعدوان القضاة وأنانية الأغنياء وانتهاك العامة للحرمات وما جرته هذه النظرية على سائر المعمورة من الوبال وما أفضت به الى النتائج الوخيمة من نزعات القومية والتسلُّطية Imperialism والحروب الطاحنة والفساد في الأرض واستعباد الاقطار المستضعفة وإبادة الشعوب عن بكرة أبيها ، أولا يشهد كل ذلك ويرشد الى ان هذا الطريق من طرق الجاهلية المحضة ، وليس العلم والتحقيق في قليل ولا كثير ؟ فان الرأي الذي رآه الإنسان عن نفسه وعن هذا الكون واستند اليه في هذا الطريق العملي ، ليس بمطابق للحقيقة والواقع على ما هما عليه في نفس الامر ، وإلا فما كانت لتُثمر شجرته هذه الثمرات الخبيثة وتأتي بهذه العواقب الوخيمة .

فلنتدبر الآن الطريق الثاني . والطريق الثاني لحل المسائل الاساسية للحياة البشرية وفك معضلاتها ان نُضيف الخرص والتوهم الى المشاهدة والحس ونستخدمها في حل هذه المشكلة فنرى رأينا في هذه المسائل ، مستنبدين الى هاتين الوسيلتين . وقد ظهرت ثلاثة آراء مختلفة بهذه الطريقة ، وكل رأي منها نتج عنه طريق عملي خاص .

الشرك :

فن هذه الآراء الثلاثة ان هذا الكون لا بد له من خالق

ومدبر ، إلا انه ليس بالهٍ واحدٍ ، بل الأمر أن لهذا الكون ارباباً وآلهةً ، وأن أزمة قوى هذا الكون المختلفة موزعةٌ بين الآلهة المختلفة وان سعادة الانسان وشقاءه وفلاحه وخسرانه ونفعه وضرره متوقفة على مرضاة ذواتٍ عديدةٍ وسخطها . والذين وصلوا الى هذه النتيجة واختاروا هذا الرأي في هذا الكون ونظامه تقدموا خطوة أخرى في الخرص والتخمين واجتهدوا في تحديد القوى الإلهية وتعيين ذواتها المختلفة فاتخذوا كل ما جذب أنظارهم من بدائع هذا الكون آلهةً .

والطريق العملي الذي يختاره الإنسان مستنداً الى هذا الرأي ، يمتاز بخصائص عديدة :

(١) **الاول** أن حياة الانسان كلها تتحول مرتعاً خصيباً للأوهام والظنون ، فانه يرى في كثير من الأشياء بمجرد التوهم في نفسه أنها تؤثر في سعادته وشقائه تأثيراً لا برهان له ولا دليل عليه ، فيضيع كثيراً من قوته عبثاً وينفقها في غير طائل طمعاً في المنافع الحسنة أو خوفاً من المضار الفادحة ، وهو مصاب بالتوهم في أعماق نفسه ، لا يستند فيه الى علم ولا تحقيق . فتراه تارة يلتجيء الى قبر رجاء ان يبلغه سؤاله ، وطوراً يعكف على صنم أملاً في أن يُنعم عليه بالسعادة والفلاح وأخرى يغدو ويروح لابتغاء مرضاة من توهمه ولياً له ناصراً ، وحيناً يتطير بشيء فيصيبه الوهن وخور العزيمة اتقاء سوء المغبَّة . وكذلك ربما يتفاءل بشيء فتذهب به الأماني والآمال المعسولة كل مذهب . هذه كلها تعدل بأفكاره وجهوده عن طريق

المساعي الطبيعة والجهود الفطرية وتُلقي بها الى طريق لا يمتّ الى طبيعة الإنسان وجبلتّه بسبب .

(٢) والثانية ان هذا الرأي يفضي بالمرء الى اتخاذ برنامج طويل من الطقوس والأعمال ، لا صلة لها بالحياة اليومية ولا أصل لها في الدين كاقامة الولائم للأموات وتقديم الاضاحي للمقابر وغيرهما من التقاليد الموروثة والوظائف الشائعة التي يضيع فيها قسم عظيم من جهود البشر وتذهب سدى وجفاءً .

(٣) والثالثة ان الذين يبتلون بهذا الشرك المنبعث من التوهم والاعتقاد بالخرافات يصبحون لقمة سائغة لكل أفاك يحترف الشعوذة والدجل او كيس يعرف كيف يُلعَب بعقول السُّذج والبُله . ومن ثم ترى الناس من ينصب نفسه ملكاً ويصل حبل نسبه بالشمس والقمر وغيرها من الآلهة الكاذبة ويجعل الناس يوقنون بأنه بلغ ذروة الالوهية وانهم عبيده . ومنهم من يصير سادناً لبيت من بيوت الآلهة او مجاوراً لقبر من قبور الصالحين ويقول للناس ان بيننا وبين الذين ترجون منهم النفع أو الضرر صلةً وآصرةً ، لا يمكنكم أن تصلوا اليهم إلا بواسطتنا . ومنهم من يظهر بمظهر كاهن أو شيخ من مشائخ الطرق ويُري الناس من شعوذته وأفانين تدجيله ما يجعلهم يستيقنون أن هذه الرقى والتمائم والتعاويذ قادرة على قضاء حاجاتهم وتفريج كربهم ، بطريق لا تصل اليه مقدرة الطاقة البشرية . ثم ان هؤلاء الدجاجلة المشعوذين تنتقل حقوقهم ووظائفهم وامتيازاتهم ودوائر نفوذهم الى أبنائهم وأحفادهم وسلائل أبنائهم وأحفادهم حتى

إنّها ، بتمادي الأزمان وتعاقب الليالي والأيام ، تصبح مجداً أصيلاً وحقاً موازياً لتلك الأسر والعائلات ، لا يزحزحهم عنها مزحزح ولا ينازعهم فيها منازع . وهكذا تكون هذه العقيدة سبباً في استعباد البشر واسترقاقهم للبيوتات الملكية وسدنة المعابد والمشائخ الروحيين . وأما هؤلاء الآلهة الكاذبة فيستغلون سذاجتهم استغلالاً ويجعلونهم مطيّة لقضاء مآربهم ويستخدمونهم كما تستخدم البقرة الحلوب .

(٤) ورابعة الاربعة ان هذه النظرية لا تزود العلوم والفلسفة والأدب والعمران والسياسة بأساس مستقل أو مبدإ ثابت ، ولا يتأتى من هؤلاء الآلهة الكاذبة الخيالية نوع من الهداية للبشر ، حتى يهتدوا بها ويقفوا أثرها . وانما علاقة الإنسان بتلك الآلهة لا تعدو أن يقوم بطقوس من العبودية طمعاً في استجلاب فضلهم ورغبة في استمطار شآبيب لطفهم . أما مسائل الحياة ومشاكلها العديدة المتشعبة ، فمن وظيفة الإنسان نفسه أن يسن لها القوانين ويشرع الشرائع ويحدد الطريق العملي لسلوكها والسير عليها . فالهيئة الاجتماعية المؤسسة على قواعد الشرك تحذو حذو المجتمع الجاهلي المحض وتسلك في حياتها العملية تلك الطرق المعوجة بعينها ، التي تقدم ذكرها في الكلام عن الجاهلية المحضة ، فإذن لا يبقى فرق جوهري بين طريقي الشرك والجاهلية المحضة في الأخلاق والاعمال وأوضاع العمران والسياسة والنظام الاقتصادي والعلوم والآداب .

الرهبانية :

والرأي الثاني الذي نشأ من استخدام الحدس والوهم ، مضافاً الى المشاهدة والحس ، هو القول بأن هذه الحياة الدنيا وهذا الوجود البشري المتكون من اللحم والدم مبعث الآلام وموطن شقاء للانسان ، وأن مثل روح الإنسان في بنيته الجسدية كمثل أسير في غيابة السجن يذوق آلام الحبس عقاباً على بعض ما اقترفه من الأخطاء وأن كل ما يفتقر اليه الانسان في هذه الحياة من الرغبات والشهوات والمطالب العديدة المتنوعة ، إنما هي أغلال هذا السجن وأصفاده المثقلة . وكلما ازداد المرء افتتاناً بما في الدنيا من متع ولذات ازداد اشتباكاً بهذه الأغلال وكثر حظه من عذاب هذه الدار البائسة وآلامها . ولا سبيل للنجاة إلا أن يصرف المرء بوجهه عن الدنيا وما فيها من الرغبات والمتع وأن يقضي على الشهوات النفسية قضاء وينقطع عن لذات الحياة انقطاعاً وان يأبى الإجابة لطلبات النفس والنزول عند مطالب الحياة الجسدية المادية . والخلاصة أن ينتزع من قلبه سائر العلاقات والأواصر النفسية تتكون من اللحم والدم ويختار من المجاهدات النفسية والرياضات الروحية ما يجعل عدويَّة الألدَّين ، النفس والجسد ، يكابدان الآلام ويقاسيان الشدائد ، حتى لا تبقى لهما سلطة على الروح ، فتعود الروح خفيفة صافية لا يشوبها كدر النفس وتتمكن من التحليق في سماء النجاة العالية والطيران الى الملأ الأعلى .

والطريق العملي الذي ينتج عن هذا الرأي يمتاز بالخصائص الآتية :

(١) **الاولى** : أن ميول الإنسان كلها ونوازع طبعه بأسرها ترغب عن الجماعية الى الفردية وتصرف بوجهها عن المدنية الى الهمجية . فيضرب صفحاً عن الحياة الدنيا وما فيها من مطالب ودواع ويفرُّ من تحمل التكليف فرار السليم من الأجرب ، وتصير حياته كلها عبارة عن الانقطاع عن المجتمع وتجنُّب الناس والابتعاد عن مخالطتهم وعدم التعاون معهم ، وتعود أخلاقه سلبية في غالب الأحوال .

(٢) **والثانية** : ان هذا الرأي يجعل الصالحين من عباد الله لا يهتمون إلا بنجاتهم وتخلصهم من آلام هذه الدار البائسة فينزوون الى كهوف ومغارات وينتقل زمام أمر العالم برمته الى من لا هم لهم إلا الافساد في الأرض .

(٣) **والثالثة** : انه يكون من تأثير هذا الرأي في العمران والمدنية أنه ينشأ في الناس أخلاق سلبية ويتولد في نفوسهم ميولٌ نزاعة الى الفردية غير جانحة الى الجماعية وتصبح أفكارهم مشحونة باليأس والقنوط ، وكذلك تنطفىء جَذوة قوتهم العملية ويصبحون لقمة سائغة للمتكبرين في الأرض ويمكن لكل سلطة جائرة أن تقهرهم بسهولة . ولعمر الحق ان لهذه النظرية يداً وأيَّ يد ، في جعل الجمهور مطيَّة ذلولاً لكل من يريد ركوبها من الغاشمين والجائرين .

(٤) **والرابعة** : ان هذه النظرية الرهبانية لا تنفك تنازع

الفطرة البشرية وتغالبها ، وكثيراً ما تُغلَب على أمرها . وكلما غُلِبت على أمرها ، اضطرت الى التستر وراء سُجُف الحيل الشرعية ، لتكون لها عوناً على إخفاءوهن عزيمتها واستكانتها للفطرة البشرية . ومن ثم نشأت عقيدة الكفارة في بعض الدوائر الرهبانية ، ومن هناك ترى بعضهم يُلقون على نوازي طبعهم وعواطف قلوبهم أستاراً ويُرخون عليها سدولاً من العشق المجازي البريء . وتجد آخرين يتعاطون في زواياهم ومغاراتهم من الشهوات والمنكرات ما يندى له جبين المروءة وما يخجل لذكره ، حتى الذين لا يتحرجون من التكالب على متع الدنيا ولذاتها ولا يرون بانغماسهم فيها بأساً .

الوجودية :

والرأي الثالث الذي ينشأ من الجمع بين الخرص والمشاهدة في حل تلك المسائل القول بأن الإنسان وما في هذا الكون من الموجودات ، لا حقيقة لها في نفس الأمر وليس لها وجود مستقل بنفسه ، وإنما اتخذها الواحد ـ وهو الباري تعالى ـ ذريعة لظهور وجوده ؛ وذلك الوجود هو الذي يعمل فيها عمله وهذه النظرية تتشعب في شرحها وتفاصيلها إلى آراء ونظريات عديدة ، إلا أن الفكرة السائدة المشتركة في جميعها هي التي بينّاها الآن من أن الموجودات كلها إنما هي مظاهر خارجية لموجود واحد ،

والطريق الذي يختاره الإنسان في حياته متشعباً بهذه النظرية انه يصبح يشك في وجوده نفسه ، فضلاً أن يجدّ ويجتهد ويشق له طريقاً عملياً في مضمار الحياة . انه يحسب نفسه دمية مصنوعة

من خشب لا تتحرك إلا بتحريك صانعها أو بحركة الصانع الكامن في صورتها . ويكاد يضل في بيداء أخيلته وأحلامه . ولا يعرف غاية للحياة يطمح اليها ببصره ومنهاجاً للعمل ليسلكه في حياته اليومية ، بل يخيل اليه أنه ليس بشيء في هذا الكون الواسع ، وليس فيه من عمل يمكنه أن يضطلع به ، وكذلك ما في مكنته أن يقوم بشيء اذا أراد ، ويرى أن الوجود الكلي الذي يحيط بهذا الكون ويسري وجوده في وجوده وفي سائر الموجودات من لدن بدء الخليقة الى ما شاء أن يحيط به ويسري فيه ، هو الذي يرجع اليه العمل كله وهو الذي يفعل ما يشاء ويقضي كل شيء فإن كان متصفاً بالكمال فلا شك في كون وجودي أيضاً كاملاً ، فلماذا هذا الجد والكفاح ؟ وإن كان ساعياً وراء كماله ، فالحركة المحيطة الشاملة التي يجري بها ذلك الوجود الكلي الى معارج الكمال ، لا بد أن تضم بين جوانحها هذا الوجود الجزئي وتصعد به الى مراقي الكمال والتمام ، من غير أن أحتاج الى الحركة والجد ؛ وإنما أنا جزء ، وما يدريني أين يذهب الكل وإلى أين يقصد ؟ والنتائج العملية لهذه النظرية تضاهي النتائج التي تقدم ذكرها في ما سبق بصدد نظرية الرهبانية ، بل ربما يقارب طريق الذي يختارون هذا لرأي ، طريق من آثروا نظرية الجاهلية المحضة واختاروها ، لأن هذا الرأي يسلم زمام أمره للشهوات ويسلس قياده للأهواء لنفسية ، فيذهب حيثما تذهب به الشهوات وتسير به الأهواء عن رضى ومن غير تحرج ، ظناً منه أن الذي يذهب ويسير

هو الوجود الكلي والتبعة والمسؤولية عليه ، لا عليّ ، على الوجود الجزئي الحقير .

فهذه النظريات الثلاث أيضاً من نظريات الجاهلية كالنظرية الأولى ، فالمناهج والطرق العملية التي تتولد من هذه النظريات تكون أيضاً على ذلك من مناهج الجاهلية وطرقها . وذلك لسببين اثنين ؛ أولهما أنها لا تستند نظرية من هاتيك النظريات الى التحقيق والثبوت العملي ؛ بل الأمر ان هذه الآراء المختلفة ما قامت إلا على أسس خيالية هيأ لها الخرص والتخمين . والثاني أنه قد ثبت بالتجارب أنها لا توافق الحقيقة والواقع . ولو كان أحد هذه الآراء مطابقاً للحقيقة ، على ما هي عليه في نفس الأمر ، لما ظهرت النتائج السيئة التي ظهرت من العمل بها والجري وفق مقتضاها . ولنضرب لك مثلا لتبين هذه الدعوى : فانك اذا رأيت رجلا كلما تناول شيئاً بعينه أصابه وجع في بطنه ، استخرجت منه أن ذلك الشيء لا يلائم المزاج الخاص الذي طبعت عليه معدته ، فكذلك إذا تحقق أن الهيئة البشرية لم يكن من حظها إلا الضرر الفادح من جراء اختيارها لنظريات الشرك والرهبانية والوجودية ، فهذا أيضاً يدل على أن نظرية من هذه النظريات لا تطابق الحقيقة والواقع .

الإسلام :

فلنأخذ الآن الصورة الثالثة لحل المسائل الأساسية للحياة البشرية التي هي آخر تلك الصور التي اختيرت لفك هذه المعضلة . ألا - وهي أن نقبل ما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام

من تلك المسائل الأساسية ونتلقاها بالاذعان والتسليم . وهذه الصورة طبيعية في حياة البشر . وها نحن نوضحها لك بمثال من حياتك اليومية . هب أنك هبطت أرضاً ، أنت غريب فيها ولا تعرف عن أهلها وطرقها وعمرانها ومناخها شيئاً ، فتحتاج الى رجل من أهلها تستعين به وتجعله دليلا لنفسك في زيارة البلاد والتجوال في أطرافها ونواحيها . فماذا يكون من عملك في مثل هذه الظروف ؟ أولاً تبحث باديء ذي بدء عن رجل يدعي معرفة البلاد والإحاطة بشؤونها ؟ ثم تتفرس في ملامح وجهه وتتأمل في حركاته لتطمئن الى أمانته وتثق بتأهله للأمر ، وحينئذ تحذو حذوه وتقفو أثره وتسير مستضيئاً بالسراج الذي أضاءه لك . وإذا تحقق لك بالتجربة أن العمل الذي عملته والطريق الذي قطعته حسب المعلومات التي زودك بها ذلك الدليل . ما جاء بنتيجة منكرة ، سكنت نفسك الى ذلك الدليل واستيقنت أنه كان عارفاً بتلك البلاد . وأن المعلومات التي كان زودك بها ، كانت في غاية من الصحة والصواب . هذه طريقة عملية . وإن لم تكن أمامنا طريقة غيرها ، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يصح الاستناد اليها للوصول الى رأي حاسم عن المسائل الأساسية للحياة البشرية .

فلنتدبر مسائل هذا الكون على غرار ما بيّنت آنفا ، فالدنيا دار غربة لنا ، لا علم لنا بحقيقتها وما فيها من نظم لتدبير مصالحها ، ولا نعرف القطب الذي تدور رحاها حوله . وكذلك لا ندري : ما هي منزلتنا في هذا الكون ؟ وما هو

المنهج الذي ينبغي لنا أن نختاره ؟ فرأينا في أول الأمر أن حقيقتها هي التي تبدو للنواظر وعملنا بهذا الرأي ، لكن النتيجة التي ظهرت لم تكن من الصحة في شيء . ثم رأينا آراء متضاربة ، مستندين الى الحدس والتخمين وجرينا كل واحد منها بالعمل بها والسير وفق مقتضاها ، لكن ما جاءت إلا ممعنة في الخطأ ، حائدة عن الصواب في كل صورة . فلم يبق بعد هذا وذاك الا أن نرجع الى رسل الله الكرام ونستفتيهم في فك هذه المعضلة ، فإنهم يدعون أنهم على علم بحقيقة الأمر ؛ وعلى ذلك فاننا كلما ازددنا بحثاً عن احوالهم وطباعهم وتراجم حياتهم ازددنا علماً بأمانتهم وصدق حديثهم وصفاء سريرتهم وتنزهم عن المآرب الذاتية وعرفنا حق المعرفة أنهم أنضج الناس عقلا وأعلاهم كعباً في سداد الرأي وثقوب الفكر . فلا يعوقنا شيء مما يظهر لنا باديء الرأي عن الثقة بهم والاعتماد عليهم والركون اليهم في حل هذه العقدة . فلا يهمنا بعد ذلك إلا أن ننظر في المعلومات التي يقدمونها لنا عن الدنيا وعن منزلة البشر فيها ، هل توافق الحقيقة ؟ وهل هناك من ثبوت علمي يناقضها أو يضادها ؟ وهل حققت التجارب استقامة المناهج والطرق التي اختيرت في العالم وفق مقتضاها ؟ فان كانت نتيجة البحث والتنقيب عن هذه المسائل أيضاً مما تطمئن اليه النفس وينشرح له الخاطر فالواجب أن نؤمن برسالتهم ونختار في حياتنا المنهاج والطريق العملي الذي يكون ملائماً لهذه النظرية .

فهذه الطريقة ، كما بيّنت في ما تقدم ، طريقة علمية

بالنسبة الى طرق الجاهلية الماضية . وإذا أسلم المرء نفسه لهذا العلم وأذعن لأمره واتبعه متجرداً عن إعجابه بالرأي و تماديه في الاستقلال بالفكر جعل طريقه ومنهاجه مقيداً بالحدود التي حددها ذلك العلم ، فهذا هو الطريق الإسلامي .

نظرية الرسل في الكون والانسان :

يقول رسل الله الكرام عليهم سلام الله : ان هذا الكون الذي نراه مبثوثاً من حولنا ، منتشراً في آفاق السماء والأرض ، مشتملا على البشر وغيره من الموجودات التي لا يأتي عليها الاحصاء ، لم يحدث فجأة أو مصادفة ، وانما هي مملكة مدبرة ، لها نظمها وقوانينها . خلقها الله وأبرزها من العدم الى الوجود ، وهو الذي يملكها ، وبيده أمرها دون غيره . وهذا نظام مهيمن ، الأمر والتشريع والتنفيذ فيه بيد السلطة المركزية ، لا أمر فيه ولا نهي إلا لذلك المليك المقتدر ، وسائر القوى التي تراها تتصرف في العالم وتدبير نظمه ، وانما هي تحت إمرته وطوع إشارته ، لا يمكن لأحد أن يستكبر عن أمره او يحرك ساكناً من تلقاء نفسه من غير أن يؤذن له . ولا مجال في هذه المملكة المهيمنة لأحد ، كائناً من كان ، للاستقلال بالأمر أو عدم الاكتراث لمسؤولية التكليف . وذلك من طبيعة هذا النظام الكوني وجبلته التي طبعه الله عليها . والانسان في هذه المملكة مملوك بخليقته وجبلته ولا يرجع فيه الأمر الى مرضاته او اختياره ، وإنما خلق مملوكاً وليس من مكنته أن يكون شيئاً غيره . فليس له أن يضع لنفسه منهاج الحياة ويحدد واجباته

بنفسه في هذه الحياة الدنيا . ولا يملك شيئاً حتى يضع قانوناً للتصرف في ما يملكه من الأشياء ، وإنما جسده وكل ما أويته من القوى ملك لله وموهبة من لدنه تعالى شأنه ، فليس له من حق في استخدامها حسب ما تستدعيه إرادته ورغباته ، بل ينبغي له أن لا يستخدمها وينتفع بها إلا حسب ما تبتغيه مرضاة الذي وهبها وأنعم بها على الإنسان . وكذلك ما يجده الإنسان مبثوثاً من حوله من صنوف الموجودات وبدائع المخلوقات كالأرض والجبال والأنعام والدواب والماء والأشجار والمعادن وغيرها ، كلها ملك لله العلي العظيم ، لا يملك الإنسان منها نقيراً ولا قطميراً ؛ فليس له أن يتصرف فيها ايضاً حسب ما تطالب به نفسه ، بل الذي ينبغي له ويجب عليه أن يعاملها وفق القانون الذي وضعه وحدد أصوله وقواعده المالك الحقيقي . وكذلك جميع البشر الذين يسكنون هذه المعمورة ، والذين تراهم في حياتهم ومعايشهم مرتبطين في ما بينهم ، كلهم عباد الله ورعيته في هذه المملكة الواسعة ؛ فليس لهم من حق أن يشرعوا أصولاً ومبادىء ويضعوا بأنفسهم قوانين عما يجب ملاحظته والمحافظة عليه في معاملتهم في ما بينهم وربط بعضهم ببعض ، وإنما ينبغي أن يكون جميع معاملاتهم في ما بينهم مبنية على ما شرعه الله العلي العظيم من القوانين .

ولسائل أن يسأل في هذا المقام : فما ذلك القانون الالهي ومن أين لنا به ؟ فجوابه بلسان هؤلاء الرسل الكرام : « إن الذريعة العلمية التي توسلنا بها الى إدراك هذه الحقائق عن الدنيا وعن

الإنسان التي أخبرناكم بها ، قد أرشدتنا تلك الذريعة العلمية نفسها الى العلم بالقانون الإلهي ، وأن الله تعالى بنفسه أعلمنا بذلك وأمرنا بتبليغكم إياه ، فعليكم أن تثقوا بنا وتؤمنوا برسالاتنا واعلموا أنا رسل الله إليكم جميعاً ، فخذوا عنا القانون الذي شرعه الله هداية لكم وإرشاداً الى سبيل الفلاح والنجاة وعضوا عليه بالنواجذ » .

وكذلك تقول هؤلاء الرسل : « إن الذي يبدو لنواظركم من أن نظام هذه المملكة العالمية سائر بتدبير وانتظام ، من غير أن يقع نظركم على مدبرها والقائم بأمرها ولا تبصرون العاملين فيها المحركين لدولابها ؛ وإن ما تشعرون به في نفوسكم من رائحة الاستقلال وأنكم تقدرون أن تعملوا كما تشاؤون ، حتى أنكم تستطيعون أن تختاروا خطة الاستقلال بالأمر او تسلموا وجوهكم للآلهة الكاذبة وتعطوا قيادة أمركم للموك الجبابرة المتكبرين في أرض الله بغير الحق ؛ وإن ما ترون من انه يأتيكم الرزق رغداً في كل حال وأنكم تتأتى وتتهيأ لكم الظروف الملائمة للعمل والجد على ما يظهر منكم من عصيان لأمر الملك الأعلى وأنكم لا تعاقبون على أعمالكم عقاباً معجلا ... كل ما ترون وتشاهدون من مثل ذلك إنما هو بلاء من ربكم وامتحان لأنفسكم من عنده فإنه لمَّا أكرمكم ، تعالى شأنه ، بميزة العقل ومدارك الاستنباط والاستنتاج ومعرفة الخير من الشر ، جعل بينكم وبين ذاته القدسية ونظام مملكته الواسعة حجاباً من حجب الغيب ، فانه يريد أن يمتحنكم وينظر :

كيف تستخدمون القوى التي منحكم إياها . انه أعطاكم العقل وأنعمكم بالخيرة في الأمر وأولاكم نوعاً من الاستقلال ثم جعل امركم إليكم ، ينظر كيف تصنعون في ما آتاكم من المواهب وكيف تعاملون من دونكم من خلقه وسكان مملكته العظيمة . فإن عرفتم حقيقة أمركم وذكرتم أنكم رعية الملك الأعلى في هذه الدنيا واخترتم لأنفسكم هذه المنزلة ، طيبة قلوبكم منشرحة صدوركم ، من غير أن يقهركم ويكرهكم على الاقتناع بهذه المنزلة ان فعلتم ذلك ، نجحتم في الامتحان الذي أراده الله أن يمتحنكم به . وان نسيتم أنكم رعية الملك الأعلى في مملكته او تكبرتم في ملكه وعصيتم قوانين مملكته ، على علم بمنزلتكم ومعرفة لمكانتكم الحقيقية خبتم في الامتحان وأبتم بالندامة والخسران . ولأجل هذا الامتحان أوتيتم من النفوذ والسلطة في الدنيا ، وجعلتم أمناء على كثير من مخلوقاته وأمهل لكم في الأمر طول هذه الحياة الفانية » .

ثم ترشدنا الرسل بعد ذلك الى أنه لامجازاة[1] ولا عقاب في

---

(١) وليكن منك على ذكر بهذا الصدد ان هذا العالم الذي نعيش فيه عالم طبيعي ، ومعناه أن القوانين التي يدور حول قطبها نظام هذا الكون ، ليست بقوانين خلقية ، وانما هي قوانين طبيعية فليس من الممكن أن تظهر في نظام الكون هذا ، النتائج الخلقية للأعمال . وان أمكن ظهورها فلا تعدو الحدود التي تهيأ لها بملاءمة القوانين الطبيعية ومساعدتها . وأما اذا لم تساعدها القوانين الطبيعية ولم توافقها ، فلا يمكن ظهور النتائج الخلقية البتة . وخذ لذلك مثلاً رجلاً قتل رجلا آخر ، فيتوقف ظهور النتائج الخلقية لهذا العمل على أن تكون القوانين الطبيعية مساعدة في القبض على الجاني والتحقق من جنايته وانفاذ العقوبة الخلقية في حقه . وان لم =

هذه الدنيا لما تقرر من كونها داراً للامتحان والاستدراج للعبد . والذي ينعم به المرء في هذه الدار الفانية لا يلزم أن يكون جزاء لحسنة كسبها او عمل خير ظهر منه ، وكذلك لا يدل على ان الله ، عز وجل ، قد رضي عنه او على أنه مصيب في ما هو سائر عليه من خطة العمل ؛ لا ، بل كل ذلك مما يمتحن الله به عبده فحسب . وكل ما يُمتَّع به المرء من المال والبنين ومتع الحياة الدنيا من الحكومة والترف والخدم ، إنما يمتع به ليمتحنه الله في ما آتاه من النعم : كيف يستخدمها وينتفع بها وكيف يظهر فيها من حسن استعداده وكفاءته او سوء معاملته وعدم تأهله للعمل . وكذلك ما يبتلى به من الآلام والشدائد وما يصاب به من المحن والاهوال ، ليس بضروري أن يكون عقاباً على عمل سيء قد اقترفه او إثم قد اكتسبه ؛ بل الامر ان منها ما يظهر كنتيجة[1]

تكن مساعدة فلا تظهر نتيجة خلقية أصلا . وكذلك ليس من الميسور أن تظهر جميع النتائج الخلقية لهذا العمل ، وان ساعدت القوانين الطبيعية ، لأن مجرد قتل القاتل عقاباً على جريمة ليس بنتيجة خلقية كاملة لهذا العمل الذي اقترفه . ولأجل ذلك قلنا : أن الدنيا ليست بدار مجازاة ولا يمكن أن تكون كذلك . وانما تقتضي دار المجازاة نظاماً للعالم مغايراً لنظام هذا العالم الذي نحن فيه ، بأن يدار فيه الأمر حسب القوانين الخلقية ، والقوانين الطبيعية لا تكون فيها الا بمنزلة الخادمة لها والتابعة اياها .

(١) كما يصاب الذي يأتي الفاحشة من الناس بالأمراض الفادحة ، فإنها ليست من العقوبة الخلقية في شيء ، وانما هي نتيجة طبيعية لاعماله المنكرة . فان تداوى بدواء ناجع بريء من المرض ، لكنه ما كان لينجو من العقوبة الخلقية ، لكن لا تدفع هذه عنه المرض .

طبيعية لبعض ما اجترحه من الأعمال المنكرة ، ومنها ما يكون من باب الامتحان[1] من الله لعباده ، ومنها ما يقع فيه لخطأ في الرأي وانحرافه عن جادة الصواب في طريقه العملي ، فإنك اذا رأيت رأيا مناقضاً للحقيقة والواقع واخترت طريقك في الحياة حسب ما يوحي به ذلك الرأي الباطل ، فلا جرم ان تصطدم[2] بصخرة الحقيقة ويكبو جواد سعيك في مضمار الحياة الواقعية . وجملة القول ان هذه الدنيا ليست بدار مجازاة ومكافأة ، وإنما هي دار للامتحان والاختيار ، وما يظهر فيها من النتائج لا يمكن أن يكون ميزاناً توازن الطرق والاعمال أو مقياساً يقاس به صحتها وصوابها ويحكم بكونها جديرة بالقبول او الرفض . و إنما المقياس الحقيقي هو النتائج التي تظهر في الدار الآخرة ، وهي آتية بعد انقضاء حياة الاستدراج والامهال

(١) كالذي يبتلى بضيق ذات اليد والنكد في المعيشة ، فان ذلك امتحان له وبلاء من ربه : هل يرجع في حاجاته وقضاء ما يفتقر اليه من أدوات المعيشة الى الوسائل المحظورة في الشرع او يبقى ثابتاً في مكانه مقتنعاً بما يتيسر له من الوسائل المشروعة . وكذلك ينظر الله اليه : أيبقى مستمسكاً بعروة الحق الوثقى ، وهو محاط بالأخطار والأهوال أم تزل به القدم فيستخذى للباطل ويطأطىء رأسه أمامه ؟

(٢) فان الانسان اذا اختار خطة في الحياة ، وهو يحسب انه « خالق لهذا الكون وأنه مستقل بأمره » ، غير محاسب على أعماله ، يصطدم بصخرة الحياة الواقعية لا محالة ، لانه رأى رأياً مناقضاً للحقيقة والواقع وعمل بموجبه فذاق وبال رأيه وعمله ، فان هذا الكون له رب وان العبد فيه مملوك كما عرفت ومثله في ذلك كمثل الذي ظن النار لعبة فألقى بيده اليها ليمسكها فاحترقت ، لانه رأى رأياً مخالفاً للحقيقة والواقع وأقدم على العمل بموجبه .

هذه فتحاسب فيها أعمال البشر كلها ويحكم عليهم بعد ذلك : هل نجحوا في الامتحان أم لا ؟ والذي يتوقف عليه السعادة والخسران في الدار الاتية أمران : الأول أنكم هل تفكرتم في آيات الله الواسعة وعرفتم على وجه النظر والاستدلال ان الله هو الحاكم الحقيقي في ملكوت الأرض والسماء وعرفتم ما جاءت به رسله وأنبياؤه من الهداية والرسالات من عنده فآمنتم بها والثاني أنكم ، بعد ما أدركتم الحقيقة هل رضيت بها نفوسكم وأسلمتم وجوهكم لحاكمية الله الواحد الأحد وأخلصتم دينكم له واتبعتم شريعته ، على ما أوتيتموه من حرية في الرأي وخيرة في الأمر .

النظرية الاسلامية في ميزان النقد :

فهذه النظرية التي قدَّمتها الأنبياء والرسل عن الإنسان والعالم ، نظرية كاملة ، متماسكة الحلقات متناسبة الأجزاء ، بين مختلف أجزائها وفروعها انسجام وارتباط منطقي وثيق ، لا يناقض بعضها بعضاً . ويمكن لك أن تستجلي بمنظارها صوراً صادقة مرتبة لكل ما وقع ويقع في العالم من الحوادث . وكذلك تستطيع أن تفسر بها كل ما في هذا الكون من بدائع الخلق والتدبير تفسيراً جامعاً مرضياً . وما من شيء في هذا العالم تشاهده او تعرفه بالتجربة ، لا يمكن تأويله بهذه النظرية . فهذه نظرية علمية يصدق عليها هذا المصطلح ويصح عليها إطلاقه بكل ما يمكن أن يوصف به من حد او رسم .

وأضف الى ذلك انه لم يثبت حتى الآن بالمشاهدة او التجربة شيء يناقض هذه النظرية ويهدم بنيانها ، فلا تزال ثابتة في مكانها لا تتزلزل ولا تتزحزح ، فلا يجوز[1] ان تعد من قبيل النظريات الميته المتهدم بنياتها . ثم ان ما نشاهده بأعيننا من نظام العالم وبدائع الكون وأعاجيب صنع الخالق يؤيد هذه النظرية ويرشدنا الى انها أقرب النظريات الى الفهم وأدناها الى الحقيقة . فالذي يوجد في الكون من إحكام التدبير وحسن الانسجام والتنسيق وما يشاهد من كل ذلك في كل جزء منه يرشدنا الى أن القول بوجود الخالق له والمدبر لأمره أجدر بذوي الالباب من القول بأنه لا خالق له ولا مدبر . وكذلك الاستنتاج من هذا التدبير والتنسيق أن هذا النظام يدور حول مركز واحد وان ليس له إلا مدبر واحد يتصرف فيه كيف يشاء أجدر بالألباب الزكية وأحرى بالعقول السليمة من أن تستخرج من كل ذلك ان هذا النظام لا يدور حول قطب واحد وأن له غير واحد من المدبرين يقومون على شؤونه ويديرون أمره حسب.

(١) ولا يغبن عن بالك في هذا الشأن ، ان مخالفة النظريات العلمية في عصر من العصور ومعارضتها لهذه النظرية التي جاءت بها الرسل ، لا تدل على انها بطلت وتهدم بنيانها ، فانه ما كان للنظريات العلمية ان تنقض نظرية علمية وتبطلها ، وانما تبطلها الحقائق . فما داموا لا يدلوننا على الحقائق - ولا يمكنهم ان يدلوا عليها - الثابتة التي ابطلت هذه النظرية التي قدمتها الرسل عن الانسان والكون ، لا يليق مستبصر ان يعدها من باب النظريات الميتة الباطلة . وان اجترأ على ذلك وادعاه ، فلا يكون هذا الا ادعاء فارغاً مبنياً على اللجاج والمكابرة .

أذواقهم المختلفة . وكذلك ما يتجلى في نظام هذا الكون من أمارات الحكمة وما يبهر الألباب والعيون من بدائع الخلقة يرشدنا الى أن القول بأن هذا نظام أسس بنيانه على الحكمة ، وان من ورائه غاية ومقصداً ، أقرب الى الحجى وأجدر بأولي النهى من القول بأنه نظام لا غاية له ، وأن مثله كمثل ما يصنعه الصبيان من الدمى والتماثيل لهواً ولعباً .

ثم اذا كان هذا الكون والنظام الكوني مملكة في حقيقة الأمر والإنسان جزءاً منها وتأملنا الأمر من هذه الوجهة تبين لنا بوجه يطمئن اليه الخاطر أن الإنسان لا يسعه في هذا النظام أن يكون مستقلا بأمره غير مسؤول عن شيء من أعماله ، وانما منزلته الصحيحة في دائرة هذا الكون أن يكون مملوكاً وعبداً قانتاً. فمن هذه الوجهة تتجلى لنا هذه النظرية أقرب النظريات الى المنطق وأمتنها صلة بالعقل السليم .

وإذا نظرنا اليها من الوجهة العلمية وجدنا أنها نظرية يمكن العمل بها بسهولة والسير وفق مقتضاها بانتظام ، فإنه يتشكل على أساسها منهاج شامل للحياة محيط بجميع فروعها وتفاصيلها . وكذلك تهيء هذه النظرية أساساً صالحاً مستقلا للعلوم والفنون والآداب والصناعة والسياسة وإدارة الملك والسلم والحرب والعلاقات الدولية . وجملة القول انها تهيء أساساً مستقلا لكل ناحية وحاجة من نواحي الحياة وحاجاتها ، ولا يضطر الإنسان في تعيين الوجهة العملية لفرع من فروع الحياة أن يخرج عن دائرة هذه النظرية .

فلم يبق لنا إلا أن ننظر في الطريق العملي الذي يظهر في الحياة الدنيا من أثر هذه النظرية وفي ما عسى أن يكون من نتائجة ؟ فاعلم أن هذه النظرية تحدث في الحياة الفردية طريقاً محدداً منظماً بالغاً في الدقة والاهتمام بالمسؤولية مبلغاً عظيماً ، وذلك بالعكس من النظريات الجاهلية التي تقدم الكلام عنها .

وبيان ذلك ان الإيمان بهذه النظرية يوجب على المرء أن لا يحسب جسده وقوته البدنية وشيئاً مما في الدنيا من أدوات الحياة وأسباب المتعة ملكاً له ولا يستخدمها كأنه مستقل بالأمر ، له أن يتصرف فيها كما يشاء ، بل يجب عليه أن يعتقدها ملكاً لله الواحد ولا يستخدمها الا في الحدود التي حددها الله له . وكل ما بيده من نعيم الدنيا ، يراه وديعة من الله ولا يتصرف فيها إلا وهو موقن انه محاسب على ما أودعه من الودائع محاسب بين يدي ربه الذي لا يعزب عنه ولا حبة خردل من أعماله ، حتى ولا أحاديث النفس وخلجات الضمير التي تتردد في الصدور . ومن البين الظاهر ان رجلا كهذا يكون دائماً ذا مبدإٍ منقاداً لنظام محدود ولا يسعه أبداً أن يرخي عنان شهواته ، مسترسلا في اتباع أهوائه ولا يتقيد بشيء ولا يمنعه عن ذلك مانع . وكذلك لا يمكن أن يكون جائراً لا يتحرج في الخيانة ، بل يكون ممن يوثق بأمانتهم ويعتمد على أخلاقهم وسجاياهم اعتماداً كاملا ، ولا يفتقر في اتباع الشرائع وامتثال الأوامر والأخذ بالمباديء السامية الى دافع أو عامل خارجي ، بل يتكون في نفسه وسجيته وازع خلقي متين يدفع به الى الحق ويُثبّته على

مكانته من اتباع الحق واجتناب الباطل ، حتى في ظروف وأحوال لا يخاف فيها لومة لائم من أهل هذه الدنيا ولا يخشى عقاب سلطة من السلطات الدنيوية . ومما لا مجال فيه للريب أنه لا يمكن تصور وسيلة أقوى وأنجح من تقوى الله وخشيته في السر والعلن والشعور بالأمانة لإعداد أفراد أمناء في المجتمع يقومون بالمهمات ويضطلعون بأعبائها .

وزد على ذلك ان هذه النظرية لا توجه همم الرجل وقواه الى الجد والكفاح فحسب ، بل فوق ذلك تطهر جهوده ومساعيه من أدناس حبٍّ الذات والانانية أو الوطنية الممقوته وتحولها الى اتباع الحق واختيار سبل الرشد وانتهاج الطريق الموصلة الى مقاصد وغايات خلقية سامية . والذي يرى عن نفسه انه لم يخلق سدى وعبثاً ، بل أرسله الله تعالى في هذه الدنيا لأداء أعمال وواجبات ، وأن حياته ليست لقضاء مآربه الذاتية او من يعوله من أهله ، بل إنما منح الحياة ليقضيها في ما ينال به مرضاة الله ، وانه ما كان ليترك إلا بعد ما يحاسب على أعماله ، وأي حساب ، وأنه مسؤول عن أوقاته كيف صرفها وعن قواه فيم استنفدها واستخدمها ؟ هل يمكن أن يكون رجل أبلغ سعياً وأكثر جهداً وأثمر عملاً من مثل هذا الرجل ؟ فتبين من كل ذلك ان هذه النظرية تكون رجالاً يستولون على الأمد في السيرة الفردية والخلق الذاتي ، حتى انه لا يمكن تصور رجال يفوقونهم فيها . وإذا نظرنا الى الناحية الاجتماعية وجدنا أن أول ما تعمل هذه النظرية من عملها فيها

انها تحول اساس المجتمع البشري تحويلاً كاملاً . فالجنس البشري كله رعية الله وعبد له بموجب هذه النظرية ؛ والكل سواسية حسب هذه النظرية في الحقوق والمنزلة واتساع مدى العمل والرقي ، ولا فضل لأحد ولا اسرة ولا طبقة ولا أمة ولا سلالة على غيرها من بني آدم ولا علو ، وليس لأحد أن يستأثر بحقوق وامتيازات دون غيره . فتنقلع بذلك شجرة حاكمية البشر وتسلط واحد على آخر مثله وتندفع المفاسد بجذافيرها ، تلك المفاسد التي تنشأ عن الملكية ونظم الاقطاعية والارستقراطية والبابوية والبرهمة .

وكذلك تقضي هذه النظرية على عصبيات القبائل والجنس والنسل والجغرافية واللون والدم ، تقضي على سائر هذه الحزازات الحزينة التي جرت على العالم والإنسانية وبالاً عظيماً والتي أريق في سبيلها من الدماء ما أريق . فإن هذه النظرية تقول بأن الارض كلها لله والناس كلهم بنو آدم وعبيد لله ، وان الفضل والشرف لا يرجعان الى النسب والسلالة او المال والثراء او حمرة اللون وبياضه ، وإنما مدارهما على تقوى الله وسمو الأخلاق وزكائها . فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله وأسماهم خلقاً وأكثرهم صلاحاً . وكذلك بُدّلت مقاييس العلاقات والأواصر الاجتماعية بين آدمي وآدمي وغُيرت موازين الفرق والتفاضل بين الناس تغييراً كاملا في دائرة هذه النظرية . فان الامور التي اخترعها الإنسان من تلقاء نفسه واتخذها أساساً للتعاضد والتناكر والائتلاف بين أبناء آدم ، تفرق كلمة الإنسانية

وتقسمها الى أجزاء كثيرة لا ياتي عليها الاحصاء وتميز في بين تلك الاجزاء عقبات وحواجز لا يمكن اجتيازها . وذلك ان السلالة او الوطن او القومية او اللون أشياء ليس من مقدرة أن يستبدل بها أخرى مثلها ، حتى يمكن له أن ينعزل عن طائفة وينضم الى أخرى أما هذه النظرية فهي على خلاف ذلك ، فإنها تجعل عبودية الله واتباع شريعته أساساً للأتلاف وتتخذهما ميزاناً للحق والباطل . فالذين استنكفوا أن يسلموا وجوههم لأناس أمثالهم ورضوا بالله رباً وإلهاً وبالإسلام ديناً وشريعة ، دون سائر الديانات والشرائع ، أولئك حزب ؛ والذين خالفوهم ولم يخلصوا دينهم لله حزب آخر ، غير حزب الله . وهكذا تنعدم جميع الفوارق ولا يبقى الخلاف إلا في شيء واحد ، وهو مما يمكن دفعه واجتياز عقبته من غير ما إرهاق ولا عنت ، فانه من الميسور للمرء أن يغير عقيدته ويبدل منهاج حياته وينفصل عن جماعة ويلتحق بأخرى ، اذا أراد ذلك واعتزمه . فالمجتمع الذي ينهض بنيانه على أساس هذه النظرية بعد كل هذا الإصلاح والتهذيب تتبدل عقليته وروحه وبنيته الاجتماعية تبدلاً كاملاً . فلا تقوم فيه الدولة على دعامة حاكمية البشر بل على حاكمية[1] الله الأعلى ؛ والأمر والتشريع فيها لله وحده ، لا يشاركه فيهما أحد غيره ، وإنما يعمل الإنسان في إدارة هذه الدولة ويؤدي واجباته فيها خليفة لله ونائباً عنه .

---

(١) من شاء التفصيل في هذه المسألة فليراجع « نظرية الاسلام السياسية » للمؤلف نفسه .

فهذا الذي يقتلع جذور جميع المفاسد التي تنشأ وتحدث من جراء حاكمية البشر للبشر واستبداده بأمر التشريح والتقنين . وعلى ذلك فإن الفرق العظيم الذي يظهر من تكون الدولة على أساس هذه النظرية أن روح العبادة والتقوى تسري في نظام الدولة بأسره فيعتقد الراعي والرعية جميعاً أننا في كنف مملكة الله العظيم ، وأن أمرنا منوط رأساً بالله العلي العزيز الذي هو عالم الغيب والشهادة . فالذي يؤدي ما عليه من الضرائب ، يؤديها وهو معتقد انه مؤذ إياها لله الملك القدوس العزيز وأنه وكيل من قبله عليها . فكل واحد من عمال الحكومة ، من شرطي من عامة رجال الشرطة الى القضاة والولاة يقوم بواجبه ويؤدي أعماله بتلك العقلية نفسها التي يؤدي بها الصلوات الخمس . فإن كلا الأمرين من باب العبادة في حقه ، يقضي ويطلب روح التقوى وخشية الله . والذين ينتخبهم سكان الدولة للقيام بواجبات الخلافة الإلهية ، أعظم ما يطلب من سيرهم وأكثرما يبحث عنه في حياتهم وأعمالهم ، هو التخلق بالتقوى والصدق والأمانة والنزاهة . فهكذا ينبعث ويظهر في المجتمع ويتمثل للعيون من الناس أزكاهم خلقاً وأرجحهم طباعاً وأعلاهم أمانة ويناط بهم إدارة المملكة ويفوض اليهم الاضطلاع بأعبائها الفادحة .

وكذلك تبث هذه النظرية روح التقوى وسمو الأخلاق وزكاء الآداب في العمران والحياة المدنية ، فتأخذ خشية الله وتقواه محل الأنانية وحب الشهوات ويكون ما بين الإنسان من الأواصر والعلاقات مشدوداً بحبائل القانون الإلهي الذي

تستحكم به هذه الأواصر والعلاقات وترسخ أصولها وفروعها . وبما ان هذا القانون قد شرعه الذي تنزه عن الأهواء الشخصية والمآرب الذاتية والذي اتصف بالعلم وتحلى بالحكمة قد روعي فيه كل جانب من الفطرة البشرية وكل ما يمكن ان يحتاج اليه الانسان ، وكذلك لم يترك باب من الفتنة إلا أوصد ولا طريق الى الشر إلا سدت مسالكه .

والأسف ان المقام لا يتسع للافاضة في بيان الحياة الاجتماعية التي تتشكل على أساس هذه النظرية او رسم صورة كاملة للبنيان الاجتماعي الذي ينهض على قواعدها ، لكن الذي أسلفته في ما تقدم ، يمكنك أن تقدر به وضعية الطريق العملي الذي تحدثه هذه النظرية التي قدمتها الرسل عن الكون والانسان وما هي نتائجة ؟ وما عسى يمكن أن تكون ؟ ولا يذهبن بك الظن الى أن هذه الصورة مثالية محضة لا يمكن تحققها في حيز الوجود ؛ بل الحق أنه قد تحققق وجود مثل هذه الدولة وتكون مثل هذا النظام الاجتماعي ، على أساس هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً ؛ وأنه لم يوجد على وجه الأرض منذ بدء الخليقة الى يومنا هذا أمثال أولئك الرجال الذين أعدتهم هذه النظرية ونشؤوا تحت ظلاها ؛ وإنه لم تكن دولة غيرها أعظم بركة وأعم نفعاً من تلك الدولة التي تكونت على أساس هذه النظرية ، والتاريخ أصدق شاهد على ذلك . وقد بلغ من أهلها الشعور بالمسؤولية حداً لا مطمح وراءه لناظر . وناهيك مثلاً بالاعرابية التي أصبحت حاملاً من فاحشة ارتكبتها ،

وهي تعرف أنها اقترفت إثماً كبيراً وأن عليها ما على التي تأتي الفاحشة من الرجم ؛ لكنها مع كل ذلك تقطع المسافة الشاسعة وتأتي من بيده الأمر وتعترف له بالذنب وتطلب اليه أن يقيم عليها الحد . فتمهل وتطلق من غير ضمان وتؤمر بالرجوع بعد ما تضع حملها . فما هي إلا أن ترجع بعد ما تضع ولدها ، فتؤمر بارضاعه والرجوع بعد ما تفطمه ، فترجع الى موطنها في البادية ، ترضع ولدها ، وليس عليها من رقيب ولا شرطي موكل من قبل الحكومة . ثم تعود بعد ما تفطم ولدها وتطلب الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليها الحد حتى تطهر من الذنب الذي اقترفته . فترجم ويدعى لها بعدما تلفظ أنفاسها . وحينما سمع النبي صلى الله عليه وسلم برجل يقدح في شأنها ، قال : « والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له »[1] هذا ما اتصف به من الخلق أهل ذاك المجتمع .

---

(١) والحديث رواه مسلم في صحيحه من طرق عديدة منها ما رواه ابن عبد الله ابن بريدة عن أبيه وقد ورد فيه من قصة الاعرابية ما نصه :

...... « فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله ، اني قد زنيت فطهرني وانه ردها ... ... قال : فاذهبي حتى تلدي فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة . قالت : « هذا قد ولدته » قال : « فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه » . فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : « هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام » ... ... ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها فأمر الناس فرجموها . فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها ، فقال : مهلا ، يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ... ... وفي رواية أخرى عند مسلم عن عمران بن حصين انه قال : لقد تابت توبة لو =

وأما الدولة فبحسبها جلالة شأن وعظم قدر أن الدولة التي بلغ دخلها السنوي ملايين من الدنانير ، والتي كانت خزانتها تمتلىء وتتدفق بما ترد اليها من كنوز بلاد فارس والشام ومصر ، ما كان رئيسها والقائم على أمرها يأخذ منها لنفسه وقوت أهله أكثر من عشرة جنيهات شهرياً ، وفي الوقت نفسه قلما كان يوجد من سكانها رجل يجوز التصدق عليه ، مهما بولغ في البحث وتتبع الأحوال .

والذي لا تقنعه هذه التجارب ولا يطمئن قلبه بعد كل ذلك أيضاً الى أن النظرية التي قدمتها الرسل الكرام عن حقيقة الكون ونظمه ومنزلة الإنسان فيه حق لا ريب فيه فلا يمكن إقناعه بطريق أخرى ، لأنه من المستحيل أن يرى الله والملائكة بعيني رأسه هاتين ويشاهد الحياة الآخرة بأم عينه بحال من الأحوال . ومن الظاهر البين أن التجربة أصوب مقياس للمعرفة وأصح ميزان للنقد في المواضع التي لا تتيسر فيها المشاهدة بالعيان . وخذ لذلك مثلاً الطبيب والمريض . فإن الطبيب اذا عجز عن ان يشاهد بأم عينه ما في بطن المريض او صدره من داء او في بنيته الجسدية من فساد وانحراف ، توسل بأنواع من الأدوية وناولها المريض واحداً إثر آخر ، حتى اذا صادف دواءً أصاب رميته فبريء المريض مما كان يشكوه من المرض ،

=قسمت بين سبعين من أهل المدينة ، لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » .

(صحيح مسلم : كتاب الحدود)

استيقنت نفسه بأن هذا الدواء الخاص كان موافقاً لطبيعة الداء الذي كان قد تمكن من جسمه . وكذلك اذا شاهدنا الحياة البشرية لا يستقيم كيانها ولا ينتظم أمرها إلا بالنظرية التي جاءت بها الانبياء والرسل ، ولا تورثها النظريات الاخرى الا شراً وفساداً ـ اذا شاهدنا ذلك وتحققنا منه ، عرفنا ان ذلك حجة أخرى ناصعة على أن هذه النظرية مطابقة للحقيقة والواقع ، وأن هذا الكون ملك لله ، لا أمر فيه إلا له ، وأنه تعقب هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يحاسب فيها العبد بين يدي ربه على ما كسبه او اكتسبه من الحسنات والسيئات في هذه الحياة العاجلة .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الفهرس

تُطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٩٥٥٠١٠ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران